الريحاني : أديب شرّف الكلمة

بقلم فؤاد الشايب

ان قيام مجلس المتن الشمالي للثقافة (*) على تكريم الرائد الخالد الذكر امين الريحاني ، يد جديدة من لبنان الحبيب تضاف الى اياديه البيضاء التي طالما بسطها للادب والفن ، وللعروبة والعربية ، في شتى ديارهما ومساكن اهلهما . فليسمح لي المتنيون الاصائل الذين دعوا الى هذا التجمع العربي حول ذكر المتني الريحاني ، ان اوجه ، في البدء ، الى لبنان وشعبه العريق ، ومثقفيه حملة الرسالات ، رواد التقدم ، ومنوري افاق هذا الشرق ، تحية الاخوة والتقدير ، من اخوان لهم في ديار الشام ، تجمعهم ، كما قال الريحاني العظيم (رابطة الاخاء والشرف القومي) ، (رابطة الروح القومية المنبثقة من الحقيقة التاريخية الكبرى) كما قال الريحاني ايضا .

سيداتي وسادتي

كل ما في ملامح الريحاني وصفاته ، وكل ما في مآثر قلمه وفكره وحركة حياته ، يؤلف بالخطوط البارعة ، والالوان المشرقة ، صورة اللبناني الابي الطموح ، ساكن هذه القمم الشماء ، ومؤنس هذه الشطآن الفسيحة الامداد . تهيب به القمم ان يتخطاها لتتلع اليه الاعناق ، وتهتف له الافاق البعيدة ان يتجاوزها الى المجهول الذي يحيطه الانسان ويوطئه لقدرة القادرين .

حياة الريحاني ، بالفكر وبالعمل ، رؤية للحقيقة من عل ، واكتشاف للواقع من حالق الذرى التي بلغها بتأمله ، وبقوة جناحه وصوفية هداه ، فهو كابن ذروة نسر تدانت له مشاهد الحياة والبيئة ، فعرفها وملكها وعقد عندها يقينه وعزمه . وهو كابن شاطىء ، شراع جريء غلاب ، بوصلته في غريزة جناحه ، لتهتدي به المراكب الكبيرة ، والعمالقة السابحة في بحر الظلام .

لقد رأى الكثير مما كان اهل زمانه يرونه سرابا واختلاطا ، ودياجير آخذا بعضها باطراف بعض . فكان له في ميادين الرجال سبقان : الاول انه رأى ، والثاني انه لم ينكر ما رآه . فهو ليس بصاحب معرفة ، فحسب ، وما اكثر من يتنكرون لما يعرفون ، بل هو صاحب مدرسة رائدة في تعريف ما يعرف ، واعلان ما يضمن ، ومصنف مواقع الجهل والظلام .

بمثل هذه الرؤية الصادقة والعزيمة الماضية ، لم ير الدين في التدين ، ولا التقوى في التعصب . لم ير الذكاء والدهاء ، في الملق والرياء . ولم ير في تخنث السياسة عوضا فحولة المجابهة والنضال . ومثلما انه انكر التعسف والقسوة في سلطان العدل ، انكر التميع والتراخي في ظلال الحريه .

اما قوميته العربية فموحدة موحدة رآها : بمذاهبها واديانها ، ببحارها وصحاريها ، بمدنها وقراها ، بممالكها وجمهورياتها . ان عين النسر لا تستطيع ان تفصل المشهد عن البؤبؤ . والشراع الجريء ، لا يحب الموت في الخلجان المنعزلة .

ومن هنا نطل على الريحاني في خروجه الكبير، وفي امتداد حياته الى حيوات الناس حوله قريبا وبعيدا .. بعيدا وراء البحار ... ووراء الصحارى والقفار .

تعلم الانكليزية وسرعان ما علم بها . واقرأ الناطقين بها ادب الشاعر الذي يترجم الشرق ، وينشر في العالم الجديد ، ارج العبقرية العربية .

وعندما تلمس جنبه وشعر بنقص انسانيته بنقص عربيته ، تعلم العربية ، وسرعان ما ارتقى بها الى منابر القادة والمصلحين والمبشرين .

ففي اهاب ادب الريحاني وثقافته : البستانيون واليازجيون ، الافغانيون والكواكبيون . وفيه من نهج البلاغة كما فيه من الاناجيل ونشيد الانشاد . وعندما التقى بالغرب ، ونفسه تضطرم بالتمرد والخروج على الدارس والمألوف وتراب القبور ، ادخل في روحه فولتير الفرنسي ، كما احتضن توماس بن الاميركي ، ليغذي التمرد بادب التمرد ، ونزعة الحق بثقافة الحق ، ورسالة القائد المصلح بسيرة الرواد المصلحين . وقد غرس لبنان اشواكا قاتلة في جنب الامبراطورية العثمانية فكان الريحاني احدها نصلا . وغرس لبنان ثقافته في حومة النضال القومي ، وكان الريحاني اينع غرساته في الحوض العربي الكبير .

ومن هنا نرى الريحاني ينحدر كالشلال المتهلل نحو قلب الجزيرة العربية وديار العرب في الربع الاول من

(*) كلمة القيت في حفلة افتتاح مهرجان الريحاني .

يسر مجلة ((الاداب)) ان تعلـــن ان عددهـــا

السنوي الممتاز لعـام ١٩٦٦ سيعالج موضوع

الشعر العربي الحديث

وسيكون حافلا بالدراسات والبحوث التـي تتناول قضايا الشعر العربي الحديث ، مضمونا وشكلا ، الى جانب النماذج الشعرية الجديدة لكبار شعرائنا المعاصرين وشعراء الشباب .

انتظروا صدور هذا العدد الممتاز في مطلـع اذار (مـارس) ١٩٦٦

القرن العشرين ، مبشرا منذرا داعيا ملوك العرب المسلمين الى الاتحاد فيما بينهم واحلال السلام ، فتنفتح له القلاع التي لم تر النور منذ الف عام ، وترحب به القصـــور الشاهقة التي امتنعت على الغزاة وطارقي ابواب الشرق. ويقبل عليه الملوك بعد تردد ، وتنبسط لـــه الاسارير بعد انقباض وتشكك . واذا بالمسيحي الماروني من قرية لبنانية صغيرة صاحب الهوى العربي والهوية الاميركية ، يقـرع ابواب القضية العربية في معاقلها النائية ويهز اصحابهـا في ابراجهم العالية ، واذ به سفير كمجموعة سفراء ، واذا به دولة كجامعة دول ، يتحدث الى الملوك في التعـــاون والتآزر وحل الخلافات وتنظيم العلاقات واقامة العهود ، فتطرب لشاعرية كلماته الاذان ، وتضطرب لحماسه القلوب وتحيط به في حله وترحاله ، نظرات التقدير والعجـب والاعجاب.

هوذا اديب من الشرق خرج بالادب من اربعة جدران الصوامع الى الملأ الواسع والمحيط الهائج والمعركة المتحدية. هوذا اديب من العرب ينتشل الادب مـن البئـر العميقـة حيث كان الاديب يعيش متأملا صورته الحزينـة الطافيـة فوق شبر ماء ..

هوذا اديب عربي يضع كرامة الادب في مواقـــع القيادة ، ويطوي صورة الاديب المستعطي ، حامل الرباب على الابواب ...

هوذا اديب شرف الكلمة اذ زفها في موكب الحياة وزفها في بعض العروق ، وسقى بها رؤوس النصال ، وروض جموح المستحيل .

هوذا اديب اخرج الحقيقة الصبية من كهوفها ، بينما كان الحواة يخرجون الارانب من اكمام قمصانهم . فلسف الحياة ليبسطها لا ليعقدها . ووشح الادب لا ليتغنى به وحده ، بل لتنشده معه جوقة الاجيال .

هوذا اديب وعى تاريخه ، كل تاريخه ، بكل خصائص البيئة والدين ، والمسكن ، ورياح الزمان ، فتكونت له بوعيه الكامل ، شخصيته الكاملة . فلا تناقض بين مسيحيتـه ولبنانيته ، ولا بين لبنانيته وعروبته ، ولا بين عروبتـه وانسانيته . ولقد طالما حذر المصيخين الى دعوته ، مـن تزويرها ، واللاعبين على قيثارته من ابتلاعها .

هوذا اديب نفض الكفن ، ودحرج الحجر ، وارتفع الى عليين مع الخالدين ، فوق دعائنا له او دعوانا عليه .

هوذا اديب تغنى بشرف الانتساب الى لبنان، فليفاخر به لبنان ، ولتهتف بمجده لهوات العرب .

فؤاد الشايب